قصة مصرية

صمم الأعماق

بقلم :
محمد صدقي كعبه

يعيش الاعمى في آلام حياته الماضية - مرة اخرى - إذا حدثك عن ذكريات طفولته التي أبدأ تعانق خياله في كل مكان أو زمان . . فماذا في تاريخ صباه مثلا . . الا انه كانت هناك اشياء يفعلها إخوته محظور عليه ان يأتيها . . ؟ اشياء كثيرة . . يذكرونها له فيصفون له من متعها مايستحيل عليه ان يفعله . وليس له من ذلك . الا ان يتألم محزوناً مضطرب النفس مع الصمت العميق . . !

إصطدامه متلا بالابواب . . ووقوعه في الحفر . وضحك إخوته الصغار منه كلما أخطأ اطباق الاكل على المائدة . . او قلب كوب الماء . عند ماغمس لقمته في إناء الشرب .

ذهابهم الى المدرسة ، وعبثهم في فناء المنزل ولعبهم بهدايا والدي لهم . . لا . . لا . . ان هذه فترة من العمر . لا احب الحديث عنها . ولايفيدك منها في قصة هواى ان تعرف عنها الكثير او القليل . أما مابعد ذلك . . فهذا هو العمر . . عمر القلب المعمود . .

* *

عند مابلغت التاسعة عشر . حلق طائر الحب النوراني في اعماقي المظلمة . فسمعت رفيف أجنحته واحسست به وقد حط على قلبي . ليغني لي لحن الوحدة . . كنت ايامها أمد سمعي الى كل ما حولي . . كأنما اخترق به سجف المجهول الذي يحيط بنفسي المفردة الوحيدة .

كانت الدنيا أيامها في عقلي . عالماً من احاديث الناس . ودروس الاستاذ عبد الفتاح القيشاوي . عالما دخل الى نفسي عن طريق أذني . فحددت معالمه واحداثه على الطريقة التي رسمها خيالي الحبيب الامين . الذي كنت ابداً ألجأ اليه . كلما أحسست نقصاً في جانب من جوانب المعرفة بالوجود في حياتي الكئيبة .

* * *

كانت الاعوام في عمري . أياماً عديدة رتيبة ، تمر شهورها هزيلة جافة . كنت لا احس من ساعاتها الا تلك اللحظات التي اقضيها مع شقيقتي سعاد في حضن الجميزة القابعة امام المنزل . او سائرين معا في الحديقة . تقرأ لي في كتاب . او اسألها عن ظواهر هذا العالم الذي حولي ، أسئلة مجنونة ظلت حيرى في ضميري . دون ان اجد من نفسي شجاعة في سؤال أحد غريب عن اجوبتها .

كنت اعيش في ليل أبدي مظلم . اموج بأعصابي وافكاري في عالم اسود كئيب فرض علي ان اقضي الأيام الطويلة من عمري في واقعة حتى أموت . .

وفجأة . فجأة يا صديقي . . حلق طائر الحب النوراني في اعماقي المظلمة . .

* * *

سمعت ذات ليلة شقيقتي سعاد . تهمس في اذن والدتي انها رأت فتاة عمياء في مثل سني . عندما كانت تذاكر دروسها مع ابنة عمي .

وقصت سعاد على والدتي . حادثة هذه المسكينة . وكيف انها سقطت من بهو المنزل خلال إحدى الغارات الليلية . فاصيبت بأرتجاج في رأسها وفقدت البصر .

كانت أختي سعاد تصف

« واحسست من اعماقي شيئاً عجيباً . .
شعرت انني اقترب من النهاية . . انني
سوف استريح . . سوف اعلو عن
الناس . . سوف أترك لهم دنياهم التي
امتلأت بالمقاييس والقيود والاوضاع
سوف . سوف أرى الله ... »

[فكرية] لوالدتي . وانا احس احساساً عجيباً بقربها مني واندماج كيانها .. في كياني . كانت تصف شعرها الذهبي المتهدل على جبينها المشرق، وصوتها الوادع العميق . وعيونها المشرعة المهيبة التي ينام فيها السكون القاتل . ويديها البضتان اللتان كانتا تعبثان بثوبها اثناء الحديث . وكيف قالت هامسة في اذن شقيقتها تسأل عن لون فستان سعاد . عند ما أخذوا يتكلمون عن تفصيلته الحديثة .

كانت شقيقتي سعاد تصف فيها ما أدرك وما لا أدرك . ولكني احببتها من كل كياني بلا تفريق لما ادرك اولا اعرف من مقاييس الجمال .

انه كان حباً قويا جارفا . مفروضا . كالقدر . لا حيلة للانسان فيه . من تكون هذه العمياء . ؟

ما هو شعورها نحو الآخرين . ؟

لا . بل ما هو شعورها نحو اعمى مثلي . ؟ أهي تتعذب ايضاً لعطف المبصرين عليها ؟ اوترى الوجود كئيبا ثقيلا على سمعها كما اعيش في اكناف اضطرابه المقوت . ؟

ما اشد شوقي الى الجلوس معها . وسماع صوتها والحديث اليها .. إنها لاشك الوحيدة التي سوف تفهمني . اليست مثلي . ؟ تسير في طريق الظلام الابدي الذي أسير فيه ؟

واحسست بانفاسي تتواثب . واخذت دقات قلبي تزداد سرعة ، ورحت في حال فكر عميق طويل . عشت فيه . خياة مزدوجة الامل والاضطراب . أسأل نفسي ملحا على افكاري ، هل لي حقا . ان اطمع في حياة دافقة غنية الاحاسيس ممتعة بالمنى كتلك التي يحياها المبصرون . ؟ .

صدقني ياصديقي ، لقد أحببت [فكرية] منذ اللحظة الاولى ، أحببتها حبا قدسيا رائعا سحري الألوان على غير مايألف الناس . على غير ما يرى او يتخيل غيري من السعداء الذين يرون الكون ويحسونه وهم يضطربون فيه ، حبا لا كحب المبصرين الذين يفاضلون بين جمال السمراء والبيضاء ، والقصيرة والطويلة ، ولكن حبا عبقريا عفوى الخاطر . حب الضعيف للضعيف والمحروم للمحروم والعاجز للعاجز ،

والتقيت بفكرية . ؟

جمعتني بها شقيقتي سعاد ، وجلسنا معا نحن الثلاثة نتكلم تقول فاسمع لها رضى النفس ، وأتكلم فأحس بأنفاسها متعلقة بما اقول .

إنني اعمى ، ولكن ذلك لم يمنع ساعتها انه كانت خلف جفوني المطبقة احلام سعيدة . تصور لي سعادة هذه العمياء بلقائي . وفرحها بالحديث الى انسان يشاركها في نفس شقوة الحرمان ،

وكثر لقاؤنا معا ، فكنت التقي بها عند ابنة عمي التي كانت تتعدد زياراتي لها كل اسبوع ، وكانت تلقاني في هذه الحجرة في هذا المكان ، كلما حضرت هي الاخرى مع ابنة عمتي في زيارة لنا ،

كانت تقول لي بصوتها الحي الوادع ، كلما اخذنا نتحدث عن انفسنا وآمالنا المقصورة الجناح ، « لاتحزن يامنير ، ان السماء يا اخي حين تسلب من انسان ماء نعمة النور ، فانها تعوضه عن هذه النعمة المسلوبة ، بنعمة الاحساس الموهف العميق ، لاتحزن ياحبيبي ، اننا مثلهم ، لم نفقد بارادتنا شيئا يؤلم الشعور ، ألسنا نستنشق رائحة الزهور . ؟ ألسنا نحس حرارة الشمس ، ؟ ألسنا نتمتع بنسيم الصباح ، ؟ والليل ، ؟ أليس هدوؤه وسكونه يريح أعصابنا بمثلهم ، إذن ، فلا تحزن ،

حقيقة يا حبيبي ، نحن لا نرى النجوم مثلهم ، ولكن من ينكر علينا أننا نراها في خيالنا أجمل منها في الحقيقة التي لهم . ؟ . .

وذات مرة قلت لها ونحن نسبح في خيالاتنا المجنونة ، ما هذا الذى تقولين يا فكريه . ؟ ان ما تزعمينه لي ، ليس إلا تعزيه ! .. ان الحسناء حين تكون جميلة تختال عجباً بجمالها وهى تعرضه على الناس دائماً . كأنما . تقول لهم هذا هو جمالي أنا ، ولكنها حين تكون دميمة ، فانها تملأ الدنيا مثالك معاذير وفلسفه . قائلة . ما حيلتي في دمامتي . . ! ان هذه هي صورة الله التي اودعها في وجهى .. أليس كذلك إذن . فلماذا نخدع أنفسنا ؟ لماذا نخلق من بؤس الحرمان

متعة وهمية لا ظل لها من الحقيقة . ؟ أكتب علينا ان نتعذب ونخادع انفسنا كذلك . . . ؟

وأتذكر أنها بكت كثيراً . وان كنت قد حرمت ايضاً من أن أرى لها دموعاً أمسحها بأناملي ، فقلت لها خاشعاً ضارعاً لقد أخطأت يا [فكريه] فلا داعي للبكاء ، فليكفني ماتثيره علي همومي واحزاني ، إنني افضل ان أحس بك تملأين علي دنياي فيضاً من الود والمحبة ، من ان اراك رؤية مجردة تافهة يراها اي أنسان من المبصرين .

كانت هذه ياصديقي آخر مرة التقي فيها بفكريه ونحن عاشقان متكافئان . فقد ذهبت . ذهبت لأنني حدثتها في ساعة من ساعات ضيق نفسي عن فلسفة العاجز المحروم من نعمة الجمال .

سمعت ان طبيباً كان في زيارتهم ذات مرة فرآها وتحدثت اليه . فادرك اي طائر في اعماقها يرف بجناحيه متخبطاً في واد مظلم مهول . أدرك ذلك الطبيب وقد استشفت نفسه من اعماقها عالماً يزخر بالألم الصامت . أنها مسكينة ، أنها مظلومة ، فحدث أسرتها عن معجزة قد تحدث . لو حاول ان يجري لها عملية جراحيه في عيونها . ولكنها كانت دائماً تتهرب من موافقتها على اجراء هذه العمليه ، لأنها كانت قد الفت الألم ، أحبته وعاشت في اكناف آلامه القاسية ، فلم يعد ثمة من داع لان تهجر وداً عاشت ساعات عمره مع الآهات والانين ، ولكنها فجأة ، بعد لقائي الاخير ، ألحت راجية ان تذهب الى ذلك الطبيب الذي حدثها ذات مرة عن المعجزة التي يمكن ان تحدث .

ومضت الايام ، مضت بطيئة الساعات ، متثاقلة اللحظات كانت مع تفكيري في فكريه كالسكاكين الباردة التي تمر على عنقي في ضغط أليم ، لا هي تذبحني ولا هي تتركني .

ياما جلست وحدي افكر كيف ستعود فكرية مبصرة لتري كآبتي الخرساء التي ضربت بين جمالها وظلام حياتي ستاراً من السواد ، كان يخيل إلي انها لن تسمح لي أبداً ان امر باصابعي على رأسها لأتحسس تقاطيع وجهها الفاتن ولن تسكر أنفاسي براتحة صدرها العبقه . أبداً . انها لن تطيق ان يكون في حياتها ضرير مثلي .

انها سوف تبصر . . . سوف ترى الشمس التي يتحدثون عنها . وعن جمالها وقت الغروب . سوف ترى ضوء القمر وقد انسكب فياضاً على صفحة النهر كما يقولون . . سوف ترى الزهور . . الندية الناضرة . . يا للسعادة التي سوف تغمر نفسها . . نعم . . إنني أشم عبير الزهور فلن أتألم . . ولكن القمر . . والشمس . . والالوان . . والناس . . الوجوه التي تعبر عما تطويه الصدور . . السماء بزرقتها التي يصفون لي جمالها ، والوادي المنحدر بطيوره واشباح نخيله ومنازله البعيده . . ذلك العالم الذي أتخيله من خلف جفوني المطبقة على الهم الدفين . . حقاً . . انني لمسكين . . مسكين لأنني ولدت اعمى ، وليس من الممكن ان أبصر من جديد .

لقد قتلني التفكير ياصديقي ، حطم أعصابي ، وحبب الي ان أستريح من ذلك العذاب القاسي الذي انقلب على نيرانه ، انني تصورت ان فكرية عندما تعود ستراني أعمى هكذا دميماً لم تمنحني الطبيعة أية حسنة من حسنات الجمال فعبثت الافكار السوداء برأسي الفجة وأنا أسير وحدي ليلا أتلمس بعصاي شاطىء النهر والريح تولول ، وعصفت بنفسي أعاصير هوجاء زعزعت البقية الباقية من ايماني بنفسي ، وقذفت بعصاي بعيداً عني ، قذفت بها بعيداً ثائراً غاضباً منها ورحت أتحسس قسمات وجهي قطعة قطعة ، أتصور عيوني حفراً عميقة مظلمة ، وجبيني نتوءاً ضيقاً بارزاً ، وأنفي ضخماً قبيحاً كقرن الفلفل ، ورداني ، نعم ، ردائي من يدري انه كان لا يزال نظيفاً ام قد إتسخ ، ولطمت الريح الباردة أنفي ، وانتفضت أعصابي ، وأحسست في أعماقي شيئاً عجيباً شعرت أنني أقترب من النهاية ، انني سوف أستريح ، سوف أعلو عن الناس ، سوف أترك لهم دنياهم التي امتلئت بالمقاييس والقيود والاوضاع سوف ، سوف أرى الله .

وتلمست يدي شاطىء النهر ، والقيت بنفسي بين الامواج

فاذا حدث يا صديقي . . ؟

إن عمر الشقي طويل . . !

لقد أنقذوني . . وراحوا يبحثون عما في ضميري من

أسرار .. اسرار لم يكن أحد ليدرى كم هي تطوى في حنايا صدرى من آلام ، ثم اقاموا سياجاً حول الحديقة لا تخطاه وغدوت هنا اسيراً قعيد الدار . تشرق افكاري السوداء وتغرب في عالمي الوسيع الملىء بالآلام والاحاسيس السوداء بينما جسدي مقيد الخطى مربوط بوتد الى مسرح مأساة حياتي الكئيبه .

اما فكريه ، فكانت اكرم وأنبل مما عبثت به افكاري الهائمة في تيه الاضاليل فكل ما خطر به الشيطان على افكاري كذبته واثبتت لي أنه كان وهماً من الاوهام ، لقد حضرت بعد شهر من اقامتها في مصحة طبيب العيون مبصرة سليمة ، فلما قمت اسلم عليها حاولت ان ابتسم في وجهها لأهنئها بسلامة العوده وانا اتخيل بما وراء جفوني المطبقة ما هي عليه من جمال ، عبثت بي دمعة ساخنة فرت من بين جفوني دون ارادتي واحسست بنفسي اخور وإتلاشى وانا اسقط على مقعدي مرة ثانية فلا اصحو لنفسي الا ونحن نبكي معاً وقد راح من بجوارنا يبكون ايضاً وقد غمرهم طوفان من الاحاسيس العجيبة التي تدفع الانسان لان يبكى دون ان يدري السبب .

لقد قبلت فكريه ان تتزوجنى ، ولكن هل تظن أنني كنت اقبل ان تكون هي اكرم منى ، فتضحي بشبابها وتدفنه فى ظلام حياتي ؟ لا ، ان الحب الذي كان بيننا انما كان حباً بين اعمى وعمياء ، كان حباً متكافئا من الجانبين اما الان فهو ليس حباً ، وانما انانية منى واحسان منها بشبابها على بؤسى ، وكان من المحال يا صديقي ان اقبل منها شبابها الذي كنت اغره كصدقة تدفنها في ظلام دنياى .

لقد كنت احبها حباً مقدساً رائعاً ، وكان اقوى برهان اقدمه لها ، هو ان اعمل على ان لا تعيش معي في ظلام دنياى إن الحب ليس هو ان تسعد ، وانما هو ان تخلق السعادة لمن تهواه .

وسكت الاستاذ منير برهة طويله ، ثم مد يده بهدوء في جيبه واخرج مصحفاً صغيراً فتح غلافه في حرص شديد ثم اخرج من بين اوراقه صورة صغيرة ، مد يده بها نحوى قائلا : — انظر ياصديقي ، الست على حق اليست فاتنة رائعه كالزهرة ، الست معي انه كان من الاسائة التي لا تغفر ان اسمح لها ان تدفن شبابها هذا الغض فى ظلام دنياى .. ؟ .. ان هذا هو الحب .

مصر — دمنهور

محمد صدق كسبه

ردود ..

● سألت صديقاً لي عن سر توجيه ولده على التمرد والعصيان فى الوقت الذي يجب ان يوجه على الفضيلة والوداعة أجابني جربت ذلك فى نفسي فلم افلح وتطاول علي الناس فلا ارغب ان يكون ولدي فريسة للأنذال .

● من المؤسف أن نشاهد جماعات وفرادى ممن قرأوا ودرسوا واختبروا الحياة وساندوا الفضيلة زمناً طويلا رجعوا وهم يلعنون الظروف التي افنوها في ذلك السبيل ، نادمين على ما قاموا به من معروف ودعاية للحق ، معتقدين ان تلك لا تتعدى الأوهام .

● سألني صديق مفكر : ما هي الأسباب التي جعلت الناس يضطربون فى سيرهم ويتمردون على الوازع الديني والمدني . أجبته انعدام الضمان الاجتماعي وشعور الناس بذلك

● اعترضني أديب صارم قائلا لي : هل تشعر بأنك صحفي جئت لتؤدي رسالتك بين الناس . قلت حاولت ذلك ولكن ظهر أني لا استطيع القيام بما يجب لوجود القوة النكراء ، والامي الغبي ، والصحفي المأجور .

● سألني أديب كبير متى يبدأ الاصلاح . اجبته اذا عم اليأس وغمرت الناس موجة الظلم .

● يقول لي بعض المتغطرسين : مهما تحاول ان تقول الحق فلا تجد اذناً صاغية . قلت اتعرف ما هو السبب . قال لا : قلت وجود امثالك يمنع من انتشار الحق . الحق الذي لا يفرق بين القوي والضعيف .